الإسلام والتصوف

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنيخى
عضو جماعة كبار العلماء
ومدير عام الوعظ والارشاد

التصوف زهد وقناعة وطاعة وعبادة وتضحية ومحبة وجهاد وفدائية حتى تعلو كلمة الحق وما من شك فى أن هذه المعانى من نتاج الايمان ثمرة لاتباع الاسلام اتباعا دقيقا (وتنفيذه تنفيذا كليا) والمعول عليه هو الصفاء القلبى والتطهر الداخلى والخارجى ولا يتحقق ذلك الا باتباع الاسلام وتنفيذ أموره واجتناب نواهيه .

ونزعة التصوف فطرية : فالانسان وقد أدرك عظمة الخلقة التى ظهر فيها ومبلغ ذلك التصوير العجيب والنفحة الربانية التى أودعت فيه لم يكن ليفنى بعد هذا العمر القصير المحدود فى الدنيا بل خلق ليعمر آمادا من السنين ربما تعد بالملايين . لهذا جد فى البحث عن الحياة وأهدافها وغاياتها وطرقها وشك فى قيمتها المادية التى تدور دائما بين الضعف والقوة والحياة والموت والشروق والغروب وتسامى الى حياة أخلد وأبقى ثابتة القيم عادلة المقاييس واصل الانسان الجهد ليصل الى الحقيقة الثابتة الدائمة التى لا تزول ، الى أصل الوجود ومفيض النعم وبارىء النسم وواهب الاشراقات الى الله والى مرضاته حيث الفوز الابدى فى حياة أخرى يتفجر فيها نعيم لا ينضب .

وهذا الصراع المستعر بين دافع الفطرة ونداء الشيطان الحائم حول زخرف الحياة وزينة الحطام هو محور التصفية وبوتقة الاختبار فى تنور الصهر ، بعدها يظهر الانسان زهرة نضرة بل شجرة باسقة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين من آداب وأخلاق ومثل مع اشراق الروح وجلاء فى القلب ونور فى الفكر يوصله الى ما فى الكون من عجائب

وأسرار وبدائع وآيات كبرى تلك فطرة الانسان . ولكن : هل يستطيع أن يتبصر الطريق بلا زلل وهل يتمكن من الوصول من غير انحراف أو خطأ أم انه لا بد من تشريع يرشده الى الحق ويهديه السبيل .

والصلاة التى فرضها الاسلام هى المرقاة الأولى من درج الصعود الأقدس بل التحرك الأول من الزحف المقدس نحو الكمال وكل تارك لها يعتبر متخلفا فى نظر الاسلام عن ركب الكمال الانسانى .

ثم ارتقى الاسلام بالصلاة درجة بعد درجة وجعل المسلم الصاعد فيها يتنقل فى الكمال حتى يصل الى منتهاه ويتمتع بمحبة الله حينئذ يرى بنور الله ويسمع بسمع الله ويغضب ويرضى فى الله ولله وتسخر مصلحته الشخصية فى المصلحة العامة ولا يقول أنا ولا يغره زخرف الحياة ويجود بما ملكت يداه ولا يشغله أهل ولا ولد ولا تنمية مال عن الجهاد فى سبيل الله يقول الحق ولو كان مرا ويكره الباطل ولو كان تبرا ، يزداد بعبادته كل يوم درجة فى الوصول ناشرا النور بين الناس بلسانه وعمله وظاهره وسره وخلوته وجلوته به يسعد الوطن وتتكتل الأمة وتقوى الجبهة وبجهاده يتحطم الأعداء .

ولقد كان للصوفية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وقدوة طيبة طاهرة فى حياة الرسالة وقبلها فقد عزفت نفسه عن موكب الشباب وزحمة الزخرف ومباهج الحياة وضجة المدينة ولين العيش وطيب المقام وأقبل على الصحراء يقرأ فى كتاب الوجود متدبرا آية الكون كوحدة كبرى متماسكة ، مطلقا بصيرته وراء مبدع الكون كحقيقة ثابتة خالدة بها تقوم الحياة واستغرق فى ذلك حتى قالت قريش (ان محمدا قد عشق ربه) وحتى جاءه الوحى فى غار حراء فكان الوحى نورا على نور فازداد به روحانية وصفاء قال يوما لأبى هريرة يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها فقلت بلى يا رسول الله ، فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رءوس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل كأملكم ، ثم هى اليوم عظام

بلا جلد ، ثم هى صائرة رمادا وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم ، اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك . وأتى رجل بهدية الى الرسول صلى الله عليه وسلم فذهب يتلمس وعاء يفرغها فيه فلم يجد فقال له الرسول (أفرغها فى الأرض) ثم أكل منها وقال « آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء» ودخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم فرآه يضطجع على حصير خشن آثاره على جنبه ، فبكى عمر ، فقال له الرسول ما يبكيك . قال انى أرى كسرى وقيصر على الحرير وأراك على هذا الحصير ، فغضب الرسول وقال أتريدها كسروية يا عمر » وقال عليه الصلاة والسلام « مالى والدنيا انما مثلى كمثل راكب قال فى يوم صائف ثم راح وتركها ، وفى هذا المعترك الخضم من جهاد النفس نحو نوازع الحياة وفى ظلال هذه الروضة الباسمة المتضوعة بالأريج والنفحات لم ينس النبى صلى الله عليه وسلم الدنيا ولا العمل لاعلاء شأنها لحماية الأوطان والحقوق والغيرة على الدين ومسايرة موكب العالم المتمدين مع عدم الغرور بالبهاء واللهو ببريق الرواء والعزوف عن الظهور والتقدم تحت أستار الخفاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار والدرهم طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه ان كان فى الساقة فهو فى الساقة وان كان فى المقدمة فهو فى المقدمة » . وتروى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها) أنه كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه فقيل له لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : أفلا أن أكون عبدا شكورا .

وسيرة الرسول عاطرة بتلك المواقف التى جذبت الرعيل الأول من المسلمين وتعلمهم القرآن جعلهم يساوون النهضة الروحية والثورة على أوضاع الشرك ورواسب الاستعباد فطهروا أنفسهم من حب المادة وحلقوا فى سماء الروحية الطليق . ولقد حفظ التاريخ للخليفة الأول أبى بكر

الصديق مواقف خالدة ربما يستبعدها العقل على بشر مثله لكنه التأثير السحرى للقرآن فقد كان رضى الله عنه يتعبد لربه حتى لتشم من فمه رائحة الكبد المشوى من خشية الله وأكل يوما طعاما ثم علم أن فيه شبه فوضع اصبعه فى فمه ثم أخذ يقيىء ما فى جوفه وتبرع فى جيش العسرة بجميع ماله وأجاب النبى صلى الله وسلم بقوله أبقيت لهم الله ورسوله عندما قال له ماذا أبقيت لأبنائك وكان يقول ما اشتهيت طعاما الا منعت نفسى منه فلا يتلف النفوس الا الشهوات وكان يبيت على الطوى راضيا قائلا فى العبادة عنى لمن تريد . واستسقى يوما فأتى باناء فيه ماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله فقالوا : ما هاجك على هذا البكاء ، قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم وجعل يدفع عنه شيئا ويقول : اليك عنى ، ولم أر معه أحدا فقلت يا رسول الله ما هذا قال : هى الدنيا تمثلت لى بما فيها . فقلت اليك عنى فتنحت وقالت : أما والله لئن انفلت منى لا ينفلت منى من بعدك ، فخشيت أن تكون قد لحقتنى فذاك الذى أبكانى .

وكذلك كان الفاروق عمر المحدث من السماء يلبس الثوب الرقيع من اثنى عشرة رقعة ويأكل الخبز دون ادام حتى تغير جلد بطنه ويفترش الأرض وينام على الحصى ويحمل القطران يصلح به ابل الصدقة ويعمل برجليه فى الطين ليعد قطع البناء ورأى أبنا له ذات يوم يأكل الثريد باللحم فضربه بالدرة وقال : لا أحرمه ولكننى أمنعه عن نفسى وعن أبنائى فمطالع الفتن فى شهوات الطعام .

وان تعجب فعجب ذلك الوصف الذى قاله ضرار الصدائى أمام أمير المؤمنين معاوية للامام على كرم الله وجهه حيث قال : كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله طويل الفكرة غزير القبرة يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ما قصر يحب المساكين ، ويعظم أهل الدين وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد غارت نجوم الليل يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ويقول : يا دنيا غرى غيرى ، أالى تقربت ، هيهات هيهات ، قد

بابنتك ثلاثا ، فأمرك حقير وأجلك قصير ، آه من قلة الزاد وبعد الطريق .

وزار عمر بن الخطاب الشام ، فأراد ان يرى أمير الشام أبا عبيدة بن الجراح فلما دخل منزله لم ير شيئا فقال أين متاعك ، قال : ما ترى . قال : لست أرى الا قصعة وقطعة من لبد ، قال ، حسبي هذا فهذه لطعامي ووضوئي وتلك لمجلسي ومنامي ، فبكى عمر اشفاقا على ابن الجراح ، فقال : أتبكى يا أمير المؤمنين على لأنني بعت دنياي واشتريت آخرتي !

هذا قل من كثر بل قطرة من بحر مما صنعه أولئك الأبطال الذين غيروا مجرى التاريخ ورسموا بريشتهم الظافرة خريطة العالم .

وبالجملة فالزهد باب الخلود يدخله الأبطال في مواكب التاريخ فيصنعون المعجزات وبقدر ما تطيش موازين الحياة في الأنظار بقدر ما ترجح كفة المعاني في الأفكار دخل من هذا الباب أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد فاستبقهما النور الى العراق والشام مهد القيصرية والكسروية ،ودخل منه صلاح الدين الأيوبي فتحطمت بأس روحيته جموع الصليبيين .

فيا أيها العرب : نحن في عصر التحرير ومرحلة الكفاح وفترة الانتقال نريد تحقيق السيادة العربية والعزة الاسلامية مصرين على تطهير الوطن العربي من المحيط الى الخليج من الاستعمار وعملائه واستئصال السخائم من النفس العربية حتى يتلاقى الطريف مع التليد وهذا الشوط يحتاج الى تقشف اسلامي وتدعيم روحي وبساطة في الضروريات ومجافاة تامة للكماليات ولكم في السلف الصالح أسوة عندما استهانوا بالدنيا فجاءتهم صاغرة وطلبوا الموت فوهبوا الحياة وفروا من النعيم فغمرهم النعيم والعاقبة لكم وتلك الأيام نداولها بين الناس فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ..

محمد الطنيخي